طيف

أحمد إسماعيل – مصر

لم أكن قبل اليوم قاصًّا ماهرًا ولا راويًا حاذقًا، ولم يَجُلْ حتى بخاطري أن أحدّث بتلك الحادثة التي قلبت حياتي رأسًا على عقب وأحدثت زلزالًا عظيمًا في جدار رُوحي وصدعًا كبيرًا في أركان القلب وأورثتني حزنًا لا يُمحى!

فمنذ أن كنتُ صغيرًا أحببتُ في الصحف اليومية ذلك البابَ الصغيرَ المُسَمَّى (صَدِّق أو لا تُصَدِّق)؛ فكان المحرّرون القائمون عليه في مختلف الصحف يوردون أخبارًا قابلةً للتصديق ومستحيلةَ الحدوث في الوقت نفسِه.

وعلى الرغم من أن الباب نفسَه كان للتسلية، وغرضه الأساسي المتعة، فكأنَّ لسان حالهم يقول متحديًا: هذا ما لدينا فإن صدّقت فمرحبًا، وإن لمْ فأنت وما تشاء.

والكتابة بمثل هذا النسق وتساوى الكفتين بين التصديق وعدمه- يمنح حريةً وشجاعةً للتعبير عن الفكرة بغضّ النظر عن محتواها ومضمونِها، وفي الوقت ذاته يفتح بابًا للرَّجْعَةِ إذا ما قُوبلت الفكرة بالهجوم.

يمكن أن أُدرج قصتي تلك تحت باب (صَدِّقْ أو لا تُصَدِّقْ)، لكن قبل أن أقصها، عليّ أن أُشير أنها قد حدثت بالفعل.. أعود بالزمن إلى الشتاء قبل الماضي، حيثُ السماءُ رماديةٌ، والشمسُ محتجبةٌ طيلة الأيام السابقة كأنَّها تشاركني ضيقي من كلِّ الأنماط الحياتية، وكلِّ الظروف المحيطة، وكلِّ الشخصيات التي ألقاها سواء عرفتُها أم لم أعرفها. كلُّ شيء كان يضغط عليّ حينها؛ أذهب إلى عملٍ بلا معنى، لا يقدّم لي سوى المزيد من ضغط الأعصاب، ومع كلِّ يوم فيه أشعر أنه يقضي على أجزاءٍ من روحي وذاتي، معاملاتي مع الناس باتت أكثرَ صعوبة، وصارت هناك جدرانٌ كثيرةٌ تُبنى؛ لتصبح سبلُ التفاهم بيني وبينهم مستحيلة!

حتى خطيبتي أصابني مَلَلٌ منها ولا أكاد أحتملُ صوتَها، وصل بي الشعور إلى درجة أن الطرقات التي أسيرُ فيها، وجدران غرفتي تبادلني الضيق والضجر، ولا تفهمني ولا تسمعني.

حَزَمْتُ أمري وحقائبي وتركتُ عملي للإجازة وسافرت إلى الجنوب على متن القطار المتّجه إلى الأقصر، وبداخلي رغبة أن أهرُب من كلِّ شيء وأبحث عن شمسٍ أخرى تغزو سمائي وتهزم غيومَ اليأس والأسى التي استوطنتْ وتلبدت في أفق روحي، ودفء يسري بأوصالي محلّ تلك البرودة التي سكنت وعَشَّشَتْ.

لكن هيهات! ما تَغَيَّرَ في الأمر شيءٌ وصدق القائل حين قال:

(البلاد كلها متشابهة إذا ما دخلناها بتأشيرةِ الحزن)

ولم أَكَدْ أصل هناك حتى قفلت راجعًا، ولم تَدُمْ رحلتي إلا يومين وأنا أحمل الضيق والأسى نفسَهما، ولم يغيّر السفر شيئًا، وزاد على كل ذلك عناء الرحلة وشقاء السفر.

ولم يَجُلْ في خاطري حينها بأنني في طريق العودة على موعد مع نقطة التماس التي لمست روحي وغيرتها؛ التقيتها.. التقيتها هي.. التقيت شطر روحي الناقص.. هم العمر ودمع الزّهر كما غنت فيروز.. بهجة الحياة وغصتها.. السؤال الحائر والجواب المُبْهَم.. أملى المشرق وغدي الضائع.. التقيت طيف... قبالة نافذة القطار كانت جلستي مستسلمًا للطريق، أحمل بين يديّ كتاب (شافاق وقواعدها الأربعون). أقرأ فيه قليلًا ويشرد ذهني كثيرًا، لا أكاد أكمل صفحة إلا والشرود يلتهمُني عدة مرات!

لا أذكر على وجه الدقة متى أدركني النوم وأنا على تلك الحال، وكلُّ ما أذكره مقطعٌ من الكتاب توقفتُ عنده كان يقول: (إن السعي وراء الحب يغيّرُنا؛ فما من أحد يسعى وراء الحب إلا وينضج أثناء رحلته، وما إن تبدأ رحلة البحث حتى نتغير من الداخل والخارج).

استيقظتُ على أجمل وجهٍ قد تراه عين بشر؛ وجه ملائكي حلو القسمات؛ فتاة اجتازت عقدَها الثاني بقليل ذات لون خمري، تعقد شعرها الفاحم السواد بعقدة أعلى رأسها، عيناها سبحان من أبدع الجمال! فيهما انعكاس فضيٌّ يشبه ضوءَ القمر، ويفتر ثغرها عن ابتسامة أسرة تحرّك الروح ذاتها من سباتها.

التفتت إليّ وقد لاحظتْ استيقاظي، ابتسمتْ وبادرتني بالقول: "أخشى أن أكون قد أزعجتك أو أن وجودي قد أيقظك! وسامحني قد وجدت كتابك انزلق من يدك وسمحتُ لنفسي أن ألتقطه، وبقي معي حتى تُفيق وأعيده إليك، فطال نومك ودفعني فضولي أن أقرأ كتابك، فأنا أيضًا أحب (شافاق) وهي كاتبتي المفضَّلة؛ أجدها ترسم روحي في كتاباتها وتعبّرُ عن مضمون ما يحتويه القلب. هل تعلم أن تلك القواعد قد قرأتُها أكثر من عشر مرات ولم أملّ منها؟!".

أخذتني المفاجأةُ من طريقتها، ولم تَنْبِسْ شفتي بجوابٍ مباشر، سوى بسمة تَسَلَّلَتْ سريعًا إلى وجهي واختفت في حينها! وأدهشني منها براءة حديثها، وانطلاقها، ودهشة عينيها حين تتكلّم وكأنها طفل اكتشف معجزة الكلام حديثا.

وما أثار دهشتي أكثر أنه لم يُهمها العبس ولا التجهُّم اللذان صاحبا وجهي في ذلك الحين، بل وأكثر من ذلك أنه لم يتركها إشراق وجهِها ولا بسمتها. ظلت تتحدث كثيرًا ما يقرب من النصف ساعة وكأنها ظمأى للكلام، وللعجب أكثر لم أملّ أنا من السمع، رغم أن رحلتي في الأصل كانت توقًا للخلاص من الكلمات والأشخاص.. انتبهتْ لكثرة حديثها قائلة: "آسفة! نسيتُ نفسي، هكذا أنا عندما أحبُّ شيئًا أتحدث عنه بكلّي وأنسى معه كلَّ شيء حتى الوقت".

لا أعرف يقينًا ماذا حدث لي! لكنَّ شعورًا غريبًا بالألفة نَبَتَ في نفسي وكأني أعرفُها منذ دهور، التقيتُها لكن لا أذكر أين ولا متى! أكملي حديثك يا

فتاتي فأنا منسجم تمامًا.. متشوقٌ جدًّا.. منجذبٌ للغاية... استمري فيه وإن كان لا يعني شيئًا أو غير ذي قيمة، أنا معكِ أستردّ نفسي مرة أخرى.. اجعلي منه نهرًا جاريًا لا يجفُّ أبدًا.. تائهٌ أنا معها في غياهب كلماتها وموضوعاتها البسيطة التي لا تنتهي.. فإذا بها توقّفت فجأةً وعادت تسألني مرة أخرى: "لماذا تبدو مهمومًا وحزينًا هكذا؟ وما الداعي لكل هذا الأسى القابع في عينيك؟ يا إلهي ماذا أقول لها؟! اختنقتْ العَبْرَةُ في صوتي الذي رفض أن يطاوعني ويجيب، من أين لكِ بتلك القوة أيتها الفتاة الرقيقة؛ لتتوغلي بحياتي بمثل هذه الطريقة؟ أأقول لها بأنني كنت ضائعًا تمامًا حتى التقيتها؟ ظمآن حتى ارتويت من سِحْرِ حديثها وطيبة روحها؟! ماذا أقول يا جميلتي؟! فما إن ملكت صوتي حتى أجبت كَنَزار:

(أنا أقدمُ عاصمة للحزن وجرحي نقشٌ فرعوني، وَجَعي يمتدُّ كَسِرْبِ حمام من بغداد إلى الصين)..

فلاحقتني بدلالٍ طفوليٍّ تُكمل ما أجبت:

(زيدينى عشقًا زيديني يا أحلى نوبات جنوني)

وضحكت ضحكة ساحرة..

وقالت: "أنا أحب (نزار) أيضًا وأحفظ أشعارَه، يمكن أن يكون (نزار) محورَ حديثنا حتى نصل ولن أملَّ، أو يكون نواةً لصداقةٍ قد تدوم بيننا إذا رغبت في ذلك".

-"ما اسمك يا صديقتي؟".

-"اسمي (طيف نور)".

قلت مبتسمًا: "اسمكِ أم صفتُك؟".

فَرَدَّتْ بخَجَلٍ: "تُغازلني إذن؟".

-"إن كان غزلًا فهو يليقُ بك وأنتِ جديرة به".

ازدادتْ وجنتيها احمرارًا!

استمرَّ حديثنا وطال.. لم أُدْرِكْ معه لا الوقت، ولا الناس، ولا حتى ذاتي. تحدَّثْنا في كلِّ شيء، وضحكنا على كلِّ شيء حتى نفسِنا.. وقبل أن يصلَ قطارنا قلت لها: "ينبغي ألا أتركَكِ أبدًا.. وهذا الودّ لا بُدَّ ألا ينقطع، قولي لي أين تقيمين؟".

دَوَّنَتْ عنوانها في الكتاب ورقمَ هاتفها، واتفقنا على اللقاء مرة ثانية. شردت وارتحلتْ بي الفكرة مرةً أخرى ودار ببالي الكثيرُ من الكلمات والموضوعات لنتحدَّثَ فيها، أدرت رأسي وأنا أحمل شوقًا وبهجةً للوجه الجميل، لكن لم أجده.. يا إلهي، كيف ذاك!؟

لا أحسب أن شرودي قد استغرق إلا بضع دقائق والقطار لم يصل بعد! اختفت.. واختفت أمتعتُها، يا إلهي، أين ذهبت!؟ القلقُ يعصِف بي، والدقائق تمرُّ ثقيلة، وكاد القطار أن يصل وهي لم تظهر بعد.. رَبَّاه.. أعدها إليّ.. فكلماتُنا ما انتهت بعد وموضوعاتنا لم تَزَلْ وليدةً لم تكبر! أي جنون هذا الذي يعتريني؟!

تراني كنت أحلُم وهي مجرد وهمٍ؟! لكن كيف وأنا شعرت بها وسألتُها عن اسمها، وكتبت لي عنوانها؟! سألتُ جيراني في المقعد المجاور أرأَيتموني أتحدث إلى فتاة؟! فأنكروا عليّ وقالوا: لم نَرَكَ تتحدث أصلًا منذ ركوبك! يا ربّ! يكادُ عقلي أن ينفجر؛ أَوَصَلَتْ بي الأمور لهذا الحد من الخبل والتخيلات؟ رحماك يا ربّ، أين هاتفي اللعين؟!

أنفاسي تتلاحق، أطلب الرقم بيدٍ مرتجفة؛ يأتيني الصوت الآلي بأنه مغلق؛ ماذا أصنع؟ وصل القطار ولم أعرف كيف ظهرت أو كيف اختفت.. سأذهب لآخر الشوط.. أين عنوانها الذي دونته؟! سأحمل نفسي إلى هناك عَلِّي أجد ما يروى ظمأَ سؤالي وَيَسُدُّ رَمَقَ جنوني واشتياقي. بناية أنيقة في إحدى الضواحي الهادئة في القاهرة –كما وصفت لي- في الطابق الثاني لافتة تحمل اسم (نور عبد الله).

امرأة خمسينية العمر فتحت لي الباب يبدو عليها هدوءٌ ووقار وتبدو شبيهة جدا ب(طيف)، يُغطِّي وجهَها مسحة حُزن لا تخطؤها العين! "مساء الخير يا سيدتي، هل لي أن ألتقي الآنسة (طيف)؟! فقد التقيتُها على متن رحلة القطار الواصلة من الأقصر اليوم، وقد نسيتْ غرضًا لها ووجدتُ أن من واجبي أن أعيدَه إليها –صراحة لم يكن ببالي أي حجة لألتقيها إلا تلك، فعلَّلتُ أن الحجة هي الكتاب وإعادته– وأرجو ألا أكون قد أزعجتكم يا سيدتي!".

تغير لونُ المرأة ولمحت في عينيها دمعًا يحتشد ولم أفهم!

تفضل يا ولدي! وإذا بي أجد صورة ل(طيف) وفي أعلى يسار الصورة شريطة سوداء؛ غاص قلبي في قدميّ، قلت: "لربما هي أختها وتُشبهها"؛ لأخفِّفَ عن نفسي وَقْعَ الصدمة.

سألتها: "سيدتي، أهذه هي (طيف)؟".

وأنا أتمنَّى أن تجيبني بالنفي.

-"نعم يا ولدي.. تلك ابنتي الوحيدة.. (طيف).. واليوم هو ذكرى وفاتها الثالثة!".

ماذا تقولين يا سيدتي، أنا قابلتُها منذ بضعة ساعات وتحدَّثت إليها، وأعطتني عنوانَها ورقم هاتفها.. أليس هذا رقم هاتفها؟".

أخذتها حالةٌ من الارتباك والدهشة: "نعم يا بني، هو الرقم، هو العنوان، قصّ عليّ مرة أخرى كيف وصل إليك الرقم".

حكيت لها كيف التقيتُها وتفاصيل اللقاء، وأنا أحكي وهي تبكي كلما أسهبتُ في الوصف، إلى أن انتهيت، قالت لي: "هَلُمَّ معي يا بني نذهب لزيارتها، وتدعو لها، فهي كانت يا بني كاسمها (طيف) فعلًا، رقيقة وجميلة، أقل شيء كان يؤذيها، أخفُّ نسمة هواء كانت تجرحها".

وأنا أسير معها بين المصدّق والمكذّب.. يوشك عقلي أن ينفجر، هل هذا حدث لي حقًّا!؟

وصلنا أنا ووالدتُها إلى مقبرة كُتب على شاهدها:

هنا ترقد المغفور لها بإذن الله (طيف نور عبد الله) المتوفاة في شهر أبريل من العام ٢٠١٤م.

لم أتمالك نفسي ووجدتُني أشارك الأم بكاءها.. وبقيت (طيف) حكايتي القصيرة الحزينة الحُلوة التي لم أحكها حتى هذه اللحظة، ومنذ حينها وإلى اليوم أنتظر طَيْف (طيف) عَلَّهُ يزورني مرةً أخرى...